لمسة الفراعنة السحرية لأدب الأطفال العالمى

لمسة الفراعنة السحرية لأدب الأطفال العالمى

أ. عبدالتواب يوسف

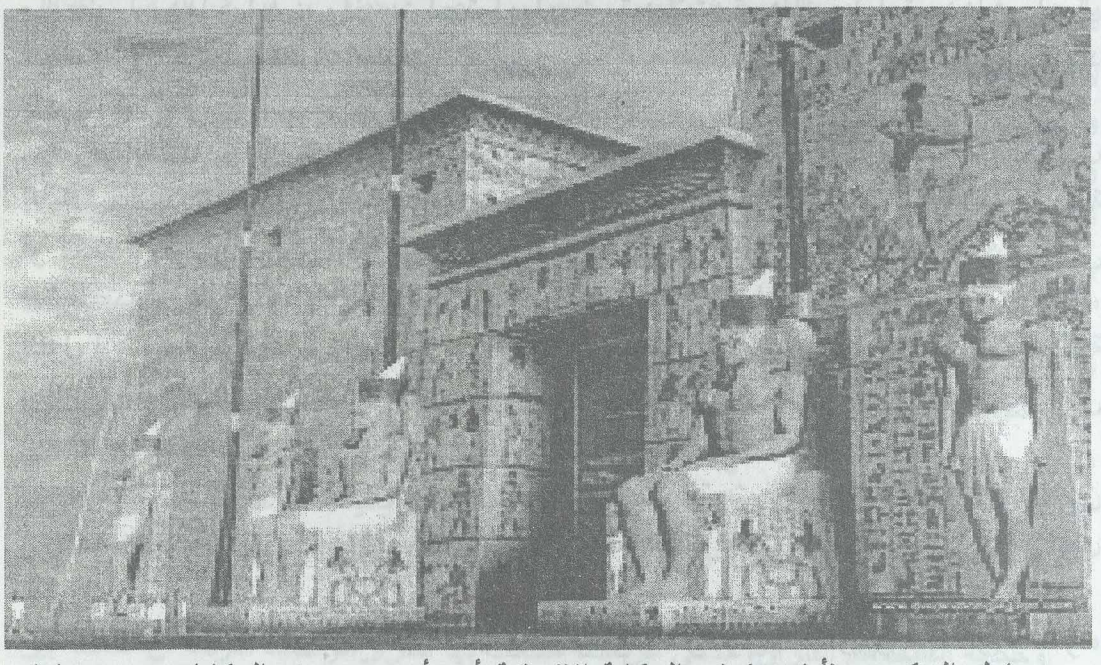

حاول العنكبوت (أنانسى) فى الحكاية الإفريقية أن يأتى بصندوق الحكايات من ربها فى السماء، وأثناء هبوطه منها سقط الصندوق وتناثرت الحكايات فى كل الدنيا. وجمع (لو- لى) فى الحكاية الآسيوية كل ما سمع من حكايات فى صرة، يحتفظ بها لنفسه، لكنهم أنقذوها من أنانيته، وفتحوا الصرة لتنتشر الحكايات فى عالمنا بأجمعه. "الحكايتان لطيفتان".

لكن الواقع يقول إن بذور شجرة أدب الأطفال قد نبتت على أرض مصر القديمة، الفرعونية، وكما استورد العالم ورق البردى منها أخذ عنها هذه البذور وراح يستنبتها فى أرضه، فإذا بها اليوم أشجارًا وارفة الظلال : بذورًا، وجذورًا، وجذوعًا، وفروعًا، وأوراقًا، وزهورًا، وثمارًا ناضجة.. مازال الفراعنة، يعيشون : تاريخًا وأدبًا.. يتمثل ذلك فى فيض من الأعمال الأدبية عنهم، ومنهم.. ونجيب محفوظ - الفائز بنوبل - له خمسة أعمال روائية كاملة، فرعونية، مما يؤكد أن أدبهم وتاريخهم حى، مازال يسرى فى عروق أدب العالم، خاصة للأطفال؛ إذ هو يمثل طفولة الأدب الإنسانى، ولمسته السحرية أشبه بما كان يفعله ميداس بالأشياء، إذ هو يحول قصص الأطفال إلى قطع ذهبية ثمينة.. دليلى على ذلك القصة الأولى فى مجموعة (غرفة المكتبة الصغيرة) للكاتبة.. اليانور فاراجون - أول فائزة بجائزة أندرسون عام 1956- إنها عن حبوب قمح مأخوذة من مقبرة فرعونية، زرعت فى حديقة بريطانية، ونمت وأنتجت.. إنه لرمز بالغ الدلالة، أضيف إليه أقدم كتاب للأطفال فى العالم، وهو محفوظ فى المتحف البريطانى، من 18 صفحة من ورق البردى، وفى لونين : أسود، وأحمر.

وحكايات الفراعنة وقصصهم معروفة فى كل الدنيا.. - شكرًا شامبليون - ويستمتع بها الأطفال والكبار.. وبودنا هنا أن نتتبع أثرها على أدب الأطفال عبر التاريخ وصولاً إلى يومنا هذا.. ولدينا كتاب الدكتور سليم حسن - فى جزأين - عن هذا الأدب، وقد كتبه صاحبه قبل نصف قرن من الزمان.. وقدمت صياغات جديدة للقصص، والأشعار، والحكم فى كل لغات الدنيا، والبعض أوردها كما هى، وآخرون أحدثوا بها بعض تعديلات، ثم هناك من استوجدها فى أعمال ضخمة، وأشير إلى قصة "سنوحى المصرى" للكاتب الفنلندى الشهير "ميكا والترى"، وقد ظهرت فى فيلم سينمائى ضخم.

وفى استطاعتنا أن نقرأ حكاية فرعونية ما، ونمضى معًا خلال العصور التى مر بها أدب الأطفال، لنجد أثرها على ذلك الأدب، سواء كان الكاتب عالمًا بذلك الأمر، أو جاء الأمر مصادفة أو اتفاقًا أو توارد خواطر، فما من حدود وقيود كانت تحول دون هجرة الأفكار.. كما أن فى استطاعتنا أن نتوقف عند الأعمال الكبيرة التى كانت منعطف طريق فى تاريخ أدب الأطفال، لنقول إن هذه الفكرة قد سبق بها الفراعنة قبل آلاف السنين.. إن مجال الدراسة الواسعة المتأنية يمكن أن تثمر لنا دراسة فريدة.. لكننا هنا سوف نكتفى بأسهم تشير إلى التأثير والتأثر، خاصة فى تلك الأعمال الأدبية الحديثة والمعاصرة التى شدت إليها كل أطفال العالم.

ونعرف عن يقين أن كثيرين يضيقون بمبدأ أنه لا جديد تحت الشمس، وأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، ونحن معهم، فالإنسانية تتقدم، والكائنات تولد وتموت وتبعث، وجدير بنا ألا نهمل التاريخ.

تدل كل الشواهد على أن الأدب التعليمى من وحى مصر، وأن المصريين هم الذين ابتدعوه، وهم الذين تفوقوا فيه، وقطعوا أشواطًا بعيدة فى مجاله، إذ كان محببًا إلى الذوق المصرى؛ لذلك بقى موضع اهتمامهم بالتأليف فيه، ساعين إلى تحسينه باذلين جهدًا يتفق ومهارة الكاتب واتساع أفقه الاجتماعى، وتحدث العالم القديم عن براعتهم فى الحكمة، وقد ثبت أن " أمثال سليمان" أخذت الكثير من تعاليم أمنحوبى، ونقلت عنها قطعًا بأكملها، ووصل إلينا شيئًا لا بأس به من هذا الأدب؛ لأنهم اعتادوا أن يدفنوا مع تلاميذ المدارس كتبهم عند موتهم، فحفظتها قبورهم. وقد ظل كتاب ظهر فى عهد الأسرة الخامسة (2700 ق.م) يقرأ فى المدارس المصرية قرابة خمسمائة سنة؛ لما به من الزخارف البديعية التى أضفت على هذا الأدب عذوبة وجمالاً.. ولهذا صار "الكاتب" أسمى المراتب والمراكز.. وقد وصلت إلينا قصص ناضجة منذ عهد الدولة الوسطى، الأمر الذى يؤكد أنه كان لها بذور وجذور من عصور قديمة.. ومن بين ما وصلنا حكايات ثلاث عن الملك خوفو، رواها له أبناؤه بشكل متتالٍ، داخل إطار واحد، هو فى حد ذاته حكاية.. وهو نفس أسلوب ألف ليلة، وشهرزاد وهى تروى حكاياتها لشهريار، وذلك هو ما فعلته قصص بوكاتشيو الإيطالية المعروفة.. وما قدمته اليانور فاراجون - أول فائزة بجائزة أندرسون العالمية سنة 1956- فى كتابها، وما قدمه روبرت لويس ستيفنسون فى "ألف ليلة الجديدة".

الحيوان وقصصه عند قدماء المصريين

يظن البعض أن الإنسان قريب العهد بقصص الحيوانات، وما يوضع على ألسنتها. والحقيقة أن بدايتها ليست "البنشا تنترا الهندية" وليست "كليلة ودمنة العربية"، بل هى تعود إلى أيام الفراعنة، بل وفى عهد الأسرات القديمة، أى ترجع إلى عام 2850 قبل الميلاد.. الطريف أن تلك الحكايات اتخذت رموزًا مازال بعضها قائمًا حتى اليوم، فالثعلب فيها رمز للمكر، والذئب يرمز للخيانة، والتمساح للغدر، والنحلة للنشاط والعطاء، والأسد ملك الحيوانات، ورمز للقوة والعظمة، ويرمز القرد للحكمة، والصقر للسمو، والكلب للوفاء، والثعبان للشر والسحر، والخنزير للوضاعة.. ومن بين الكلمات التى حفظها لنا التاريخ قول أمنمحيت الأول لابنه : "لقد استأنست الأسود وقهرت التماسيح - يشير بذلك إلى أعدائه الأجانب - كما جعلت البدو المغيرين، يفرون من أمامى كالكلاب".. ومن بين قصص الحيوان الفرعونية :

"الثعلب والوز، والذئب راعى الغنم، والتمساح المسحور، والنحلة وزهرة عباد الشمس، والأسد والغزالة الجميلة، وجيش القطط وقلعة الفئران".

وقصة التمساح المسحور واحدة من قصص الملك خوفو، وتحكى عن شاب تلصص على بحيرة حديقة دار كبير الكتبة "أوبا أونر"، وراح يسبح فيها، ولما علم صاحب الدار بالأمر أتى بصندوق السحر، ووضع فيه تمساحًا صغير الحجم من الشمع، وقرأ عليه تعويذة سحرية، وعندما جاء الشاب ونزل إلى البحيرة ألقوا إليها بالتمساح الشمعى، وإذا به يتحول إلى تمساح حقيقى ويطبق بفكيه على الشاب.

وحكاية القطط مع الفئران، تحكى عن قلعة احتمت بها الفئران، وكانت تعرف أن العلاقة بين القطط والكلاب سيئة؛ لذلك استنجدت بالأخيرة، وقد أعانتها مساعدتها على هزيمة القطط، ولكن هذه احتالت على الكلاب، وراحت تغريها بطعم الفئران اللذيذ، فانقلبت الكلاب عليها، وشاركت القطط فى أكلها.

لقد كانت بداية قصص الحيوان على يد مصر القديمة. ويقول كتاب التاريخ الذى درسته فى طفولتى فى منتصف الثلاثينيات.

"اعتقد المصريون القدماء أن الآلهة كانت تزور الأرض دائمًا لتراقب أعمال الإنسان، فتسكن أجسام حيوانات شتى؛ وبذا أصبحت أغلب الحيوانات مقدسة فى نظر المصريين : فابن آوى مثلاً يمثل أنوبيس إله التحنيط، والبقرة أقدس الحيوانات تمثل الإلهة حتحور إلهة النساء والجمال والحب والموسيقى. كذلك كان للعجل المعروف بعجل أبيس مركز خاص فى العبادة، وكانوا يختارونه من بين مواليد البقر، باجتماع عدة أوصاف فيه : كسواد جلده، ووجود شامة بيضاء مثلثة الشكل على جبهته، وأخرى على جانبه الأيمن فى شكل هلال. وكان يوم الاهتداء إليه يوم سرور عام، كما كان يوم موته ابتداء حزن شامل، يستمر حتى يعثر القوم على عجل آخر تتوافر فيه جميع الصفات المطلوبة. وكانوا يحتفلون بدفنه احتفالاً رهيبًا فى مقبرة عظيمة منحوتة فى الصخر فى سقارة تعرف بالسرابيوم. لايزال بها عدد من توابيت العجول، مصنوعة من الجرانيت والبازلت، يرجع أقدمها إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين، وكانت هناك بضعة حيوانات اعتبرها المصرى نجسة، كالخنزير، لا يمسها أحد سوى رعاتها، فإذا لمس أى رجل

ولو بطرف قميصه خنزيرًا، وهو فى طريقه أسرع على الفور إلى النهر ليغتسل، فينزل فيه بملابسه حتى يطهر نفسه مما لحقه من رجس.

وكانت الثعابين والأفاعى تعتبر بصفة عامة آفات يجب القضاء عليها، وكان بعضها مقدسًا كالحية، التى كانت تنقش صورتها على أبواب معظم المعابد المصرية، كما كانت تزين بها تاج فرعون.

كذلك كانت هناك طيور قدسها المصريون، من أهمها : الصقر (الباشق)، وأبومنجل (آيس)، وكان الصقر رمزًا للإله حورس، وأبومنجل رمزًا لتحوت، وهو إله العلم والحكمة - وقد اتخذته جامعة القاهرة رمزًا لها - وهو الذى اخترع الكتابة ووضع اللغة والأدب، وذلك وفق عقيدة المصرى القديم وكان تحوت فى الأصل إله مدينة الأشمونين (مركز ملوى بمدينة إلمنيا)، وهى التى سماها اليونان "هرموبوليس"، ومعناها مدينة الإله هرمس، إله الفن والعلم عند اليونان والرومان.

وقد ظل الاعتقاد بقدسية الحيوانات سائدًا إلى آخر التاريخ المصرى القديم، وكان قتل كل حيوان مقدس جريمة يعاقب عليها بالإعدام، فإذا حدث القتل عفوًا، جاز أن يكتفى بفرض غرامة على القاتل.

ويجب أن نلاحظ أن هذه الحيوانات لم تعبد لذاتها كآلهة، إلا فى آخر التاريخ المصرى، حين دخلت البلاد فى دور انحطاطها.

وكان لهذه الحيوانات حراس يقومون على خدمتها ويقدمون لها الطعام الذى يأتى به الناس، فإذا ماتت دفنت بعد تحنيطها باحتفال رهيب فى مقر عبادتها الرئيس، فمثلاً كان العجل أبيس يدفن فى السرابيوم بسقارة، والقطط فى مقبرة خاصة فى تل ببوسطة، والقردة المقدسة التى ترمز للإله تحوت فى القسم الغربى من هرموبوليس (تونة الجبل).

ومن الضرورى أن نشير إلى عملين قديمين هامين فى هذا المجال : الأمير الذى سيلقى حتفه على يد كلب أو تمساح أو ثعبان.. وقصة ثعبان الجزيرة، وكلاهما من قصص الحيوان، والحديث عنهما قد يطول.

ويقول د. ثروت عكاشة فى كتابه (الفن المصرى - الجزء الثانى ص 766) : "ولقد نحتت الدولة الحديثة كثيرًا من تماثيل الحيوانات الآبده والمستأنسة، فتركت لها مجموعة من الأسود ذات العضلات القوية والقطط ذات الأجساد المرنة الناعمة، وهى مع هذا متنمرة، وكلاب الحراسة الأمينة اليقظة والقردة الوقورة المضحكة معًا.. وجميعها صادقة فى واقعيتها بعيدة عن الوحشية التى بالغ الفن الآشورى فى إبرازها بعد ذلك"

وإذا كان الفراعنة قد حنطوا الحيوان، وقدسوه، وعبدوه، وأقاموا له التماثيل، فليس غريبًا إذن أن يكون بطلاً لعدد من أعمالهم الأدبية، سواء بقى ذلك الحيوان فى القصة حيوانًا، أو مسه السحر، أو أصبح صنعًا للإنسان فى تصرفاته، أسوة بما كتبه أوريول فى (قدرة الحيوان).. بل لقد وصل بالمصريين الحد إلى التعبير عن روح الفكاهة بصور للحيوان، ومن هذا النوع رسم

مجونى ورد على ورقة بردى محفوظة فى المتحف البريطانى يمثل حيوانات تقوم ببعض أعمال الإنسان، وأظن أن روح الفكاهة تزال باقية فينا من يومها وإلى الآن.